مركز باحث للدراسات الفلسطينية والاستراتيجية

التقدير نصف الشهري

تحليل للتطورات السياسية والأمنية في «إسرائيل»

www.bahethcenter.net
Email: baheth@bahethcenter.net
bahethcenter@hotmail.com

باحث للدراسات
الفلسطينية والاستراتيجية

تحليل نصف شهري للتطوّرات السياسية والأمنية في «إسرائيل»

أهداف المركز الرئيسية:

1. إعادة فلسطين إلى موقعها الحقيقي كقضية مركزية للأمة.
2. الترويج للقيم الجهادية والنضالية في إطار استراتيجية تحرير فلسطين.
3. بناء علاقة متينة مع النخب والشخصيات المعنية بالقضية الفلسطينية.
4. إصدار دراسات وأبحاث وتقارير ذات بعد استراتيجي وتحليلي.

"بيرل هاربر" إسرائيلي في غلاف غزة

1 – مدخل :

لقد سبق أن قتلت "إسرائيل" جيلاً كاملاً من قادة "حماس"، على رأسهم مؤسّس الحركة، الشيخ الشهيد أحمد ياسين، والقيادي البارز الشهيد عبد العزيز الرنتيسي، وعدداً من قادة ومؤسّسي كتائب عز الدين القسّام، الجناح العسكري للحركة. ولكن ما حدث الآن هو أنه جاء جيل جديد من القياديين طوّروا الحركة وجعلوها أكثر قوة وكفاءة، وزادوا من عدد مقاتليها. وقد شكّل النجاح الاستخباري المذهل لقوات "حماس"، أكثر وجه من وجوه عملية «طوفان الأقصى» تسبّباً بالصدمة لدى كيان الاحتلال وجيشه وفي العالم، وذلك لأنه فوّت عليه أي استعدادات لمواجهة الهجوم المباغت، سواء عبر جهاز الأمن الداخلي «الشاباك»، أو عبر شعبة الاستخبارات العسكرية في الجيش «أمان»، على الرغم من أن المخطّطات كان تم إعدادها منذ سنوات؛ فيما جرى التجهيز المعلوماتي والميداني للمقاتلين في مختلف الوحدات قبل فترة طويلة من ساعة التنفيذ. وقبيل بدء المعركة بفترة وجيزة، لم يكن العدو يعلم شيئاً عمّا يجري تحت الأرض، على الرغم من أن مقاتلي "حماس" ومُناصريهم كانوا قد أبلِغوا بساعة الصفر، وطُلب منهم التجهّز بكلّ ما لديهم من عتاد وتحضير نفسي وروحي في عدد من النقاط، وخاصة في المناطق القريبة من حدود قطاع غزة. ومع انطلاق المعركة، استطاعت "حماس" تعطيل كل الأدوات الاستخبارية الإلكترونية للجيش الإسرائيلي في المنطقة الحدودية عبر سلاح السايبر، حيث تم إيقاف كل كاميرات الاحتلال على طول حدود القطاع، فيما جرى تدمير بعضها عبر القنص. ويقول أحد المصادر إن المقاومة استطاعت بشكل فعلي «شل استخبارات الجيش في اللحظات الأولى من المعركة، بعدما قطعت الاتصالات العسكرية الخاصة بالجيش، وهو ما قطع التواصل بين قيادة الاستخبارات العسكرية في الحدود ووحدات الاستطلاع، وبين القيادة العسكرية الإسرائيلية. وعلى المستوى السياسي، اعتقد العدو أن حركة حماس تريد مزيداً من الهدوء، وأنها لم تصل بعد إلى حالة من الرضى عن قوّتها العسكرية. كذلك، حملت تصريحات الحركة وقيادتها، أثناء اللقاءات مع الوسطاء، وفي اللقاءات الخاصة، مؤشّرات إلى أنها ليست بصدد المبادرة إلى عملية عسكرية ضد الاحتلال خلال الفترة الحالية، وأنها لن تذهب إلى الحرب إلاّ إذا فُرضت عليها، وأنها بحاجة إلى مزيد من الوقت لمعالجة قضايا غزة الإنسانية وتحسين الوضع الاقتصادي فيها لدعم الحاضنة الشعبية. وعزّزت تلك التطمينات، بدورها، حالة الخداع الذي

بلغ ذروته عندما طلبت الحركة من الوسطاء التدخّل لدى الاحتلال لزيادة حصة غزة من تصاريح العمّال ومن المنحة القطرية.

بيرل هاربر هو ميناء وقاعدة عسكرية، كان يُعتبر المقر الرئيس لأسطول الولايات المتحدة في المحيط الهادئ في الحرب العالمية الثانية. وقد تعرّض لهجوم مباغت في 7 ديسمبر/ كانون الأول 1941 من قِبل اليابانيين، بسبب الحصار الاقتصادي الخانق الذي كانت تمارسه الولايات المتحدة الأمريكية عليهم، على الرغم من استخفاف الاميركيين بهم وبقدراتهم العسكرية. وقد أسفر الهجوم عن تغيير وجه التاريخ، وعن المشاركة النشطة المباشرة من جانب أميركا في الحرب. وفي النتيجة أغرقت اليابان في 90 دقيقة، أربع سفن حربية، ودمّرت أربعًا من السفن الكبيرة، وثلاث طوّافات، وثلاث مُدمّرات، وحوالى 200 طائرة أمريكية؛ فضلًا عن قتل 2400 أمريكي، وجرح أكثر من 1175 آخرين، في هجومها المفاجئ. كذلك حصل لإسرائيل في حرب يوم الغفران (أكتوبر/تشرين الأول 1973) إثر الهجوم المباغت المزدوج من قِبل كل من مصر وسوريا . لكن الهجومين وقعا في عصر ما قبل التكنولوجيا والإنترنت، وسهولة انتقال المعلومات، في حين أن المُجمع عليه في الوقت الحالي هو أن المباغتة العسكرية باتت بحكم الصعبة جدًا إلى حد الاستحالة، وفق الخبير العسكري الألماني رانير براون، الذي قال: «إن هجوما بيرل هاربر ويوم "كيبور" (حرب أكتوبر/ تشرين الأول) كانا مفاجأتين كبيرتين، وكان للمباغتة دور كبير في تحقيق الهجومين أهدافهما. وأضاف: «تُعتبر المباغتة العسكرية صعبة جدًا في الوقت الراهن، بسبب التكنولوجيا، واستراتيجيات التجسس المتقدمة، وسهولة الحصول على المعلومات، وصعوبة تحريك جيوش كاملة، أو الاستعداد للحرب من دون رصد هذه الاستعدادات من قِبل أقمار التجسس الصناعية على سبيل المثال. وختم براون بالقول إنه بالرغم من أي شيء: " فالمباغتة العسكرية ممكنة حاليًا، وإن كان احتمال حدوثها ضعيفًا. ووقوع مباغتة عسكرية في الوقت الحالي سيوقِع خسائر أكبر بكثير من بيرل هاربر على سبيل المثال". وفي السياق، استعرضت شبكة "سي إن إن" الإخبارية الأمريكية، في تقرير لها، كيف ذكّرت الهجمات التي شنّتها حركة حماس على إسرائيل، بالغارة الجويّة المباغتة التي نفّذتها البحرية الإمبراطورية اليابانية على الأسطول الأمريكي، في قاعدته البحرية بميناء بيرل هاربر بجزر هاواي، مُتسائلة عن السبب وراء عدم تمكّن أمن الحدود الإسرائيلي المتطور من وقف الهجوم. ورأت الشبكة أنه بالرغم من أن إسرائيل ليست بغريبة على مثل هذه الهجمات، فقد كان هجوم سبت الغفران غير مسبوق، لا سيما بسبب عدم وجود تحذير، حيث تعرّض جيش الاحتلال الإسرائيلي لهجوم مباغت، بالرغم من العقود التي عملت فيها تل أبيب على أن تصبح قوة تكنولوجية متفوّقة. ونقلت "سي إن إن" عن المتحدث السابق باسم جيش الاحتلال للإعلام الدولي، جوناثان كونريكوس، قوله " إن النظام بأكمله أخفق،

وليس مجرّد عنصر فقط، بل البنية الدفاعية بأكملها فشلت بشكل واضح في توفير الدفاع اللازم للمدنيين الإسرائيليين"، في إشارة إلى المستوطنين في غلاف غزة. وأضافت: "إنها لحظة تُشبه بيرل هاربر بالنسبة لإسرائيل، حيث كان يوجد واقع حتى اليوم، وسيكون هناك واقع بعد اليوم". وأشارت القناة إلى أن جيش الاحتلال تجنّب مراراً أسئلة عمّا إذا كانت الأحداث التي وقعت يوم سبت الغفران تشكّل إخفاقاً مخابراتياً. وقال المتحدث باسم جيش الاحتلال، المقدّم ريتشارد هيخت، إن إسرائيل تركّز على القتال الحالي وحماية أرواح المدنيين. سنتحدّث عمّا حدث من الناحية المخابراتية بعد ذلك". وأوضحت القناة أنه منذ انسحاب إسرائيل من غزة عام 2005، أنفقت مليارات الدولارات على تأمين الحدود من الهجمات؛ وقد أدّى ذلك إلى ضرب أي أسلحة تُطلَق من داخل غزة إلى إسرائيل، ووقف عناصر المقاومة التي تحاول عبور الحدود جواً أو عبر الأنفاق تحت الأرض. ومن أجل إيقاف الهجمات الصاروخية، استخدمت إسرائيل القبّة الحديدية، وهي منظومة دفاع صاروخي تم تطويرها بمساعدة الولايات المتحدة. كما أنفقت مئات ملايين الدولارات على بناء منظومة حدودية ذكيّة مزوّدة بمستشعرات وجدران عالية، قالت وكالة رويترز للأنباء إنها اكتملت نهاية عام 2021.

2 – خطيئة نتنياهو:

على الرغم من أن بنيامين نتنياهو يُقدّم كرجل حازم وقوي، ولكن بعكس الشائع هو رجل شراء الوقت باللاحرب واللاسلم؛ وقد ارتبط اسمه بأكبر قدر من محاولات الاستيطان والإساءة للأقصى، والتنصل من الاتفاقات مع السلطة الفلسطينية؛ وهو أيضاً لا يميل للتورّط في الحروب الدموية الطويلة مثل سلفه أرئيل شارون، لأن معادلة نتنياهو مع الشعب الإسرائيلي أنه يحاول الاستيلاء على أكبر قدر من الحقوق الفلسطينية بأقل قدر من الحروب، ليس لأنه رجل سلام، ولكن لأن المجتمع الإسرائيلي مع ازدياد رفاهيته أصبح أقل استعداداً لدفع ثمن الحروب؛ وأنه رغم تطرّفه وتسليمه القيادة لأقصى اليمين، فإن لدى نتنياهو رغبة في الاستمتاع بالرخاء الاقتصادي الكبير الذي تحقّق في عهده الطويل. بينما لم يعد اسمه مرتبطاً فقط بالانقسام الداخلي جرّاء التعديلات القضائية التعسفية؛ بل أيضاً بواحدة من أسوأ الإهانات التي لحقت بإسرائيل منذ نشأتها. وفور إدراكه حجم الصدمة والإهانة الهائلة التي مُني بها، حاول استيعاب الضربة الأولى والعمل على الحد من تداعياتها الاستراتيجية عليه، في ظل فداحة الخسائر التي لحقت به وبكيانه، وعمق الخروقات التي استطاعت المقاومة إحداثها في جدار هيبته وغطرسته. وفي سبيل ذلك، عزّز العدو من قصفه الهمجي على غزة بتدمير المنازل على رؤوس ساكنيها، واستهداف المدنيين العُزّل وطواقم الإسعاف والمساجد والمستشفيات، وقصف الأبراج السكنية والمكاتب الإعلامية؛ فضلاً عن استخدام القنابل الفوسفورية المحرّمة دولياً. وأتت هذه

التطورات بالتزامن مع تلويح نتنياهو بهجوم بريّ على القطاع بهدف دفع المشهد إلى نهايات تساعده في استثمار النتائج الميدانية، في أي مفاوضات ستجري لاحقاً، ولا سيما في ظل امتلاك المقاومة الفلسطينية رهائن له، لن يكون مصيرها قيد البحث إلاّ بعد وقف العدوان على غزة. وأدرك نتنياهو جيّداً أن ما أعلنه من نيّته القضاء على المقاومة في غزة بعيد المنال؛ إذ إن أي محاولة لتنفيذ هذه النيّة ستعني توسيع دائرة المواجهة، في ظل معادلة «وحدة الساحات» التي رسّختها قوى المقاومة سابقاً، ويصعب إبطالها برفع مستوى العدوانية.

ولعلّ استنفار قوات الاحتلال في شمال فلسطين المحتلة، ودوي صافرات الإنذار هناك باستمرار، فضلاً عن الدعوات إلى الاختباء في الملاجئ، كلّها تشير إلى حجم الإرباك الذي تشكّله الجبهة الشمالية للعدو، حيث يخشى اشتعالها هي الأخرى، ولا سيما في ظل عدم تمكّنه من تحمّل جبهة غزة وحدها، وانشغاله بمحاولة «تأمين» الحدود من أي اقتحامات إضافية بدلاً من شن هجمات، فيما لم يستطع السيطرة بشكل كامل على «الغلاف»، مع استمرار المقاومة الفلسطينية في تنفيذ عمليات تسلّل إلى داخله. وأكّدت المصادر أنه «برغم القصف الهمجي من قِبل جيش العدو، لم تتضرّر قدرات المقاومة، وأن جميع استهدافات الاحتلال تركّزت على المدنيين العزّل بهدف الضغط على الحاضنة الشعبية»، مضيفةً أن المقاومة «تنفّذ خطتها بقوّة واقتدار، ولا تزال مفاعيل التحكم والسيطرة لديها تعمل بجودة عالية جداً، وهي تُدير المعركة وتُفقد الاحتلال القدرة على المبادرة، أو على إضعاف قدراتها العسكرية».

وأعلنت «كتائب القسّام» أنها تمكّنت، أكثر من مرّة، من القيام باستبدال للمقاتلين في محور «زيكيم – عسقلان» ومحور «صوفا» الذي شهد «اشتباكات عنيفة»، ومحاور أخرى.

معلوم أن القطاع يعاني منذ عام 2007 (منذ 16 سنة) من حصارٍ إسرائيلي خانق من كل الجوانب تقريبًا، بما في ذلك الجانب المصري. وعلاوةً على ذلك، فإن غزة مُغلقة عن بقيّة العالم؛ بل إن الوصول إلى الموارد الحيوية والضرورية، بما فيها الغذاء والماء والكهرباء، يخضع لسيطرة إسرائيلية تامة، وهو ما يزيد من صعوبة حياة الغزيّين. وقد قَتلت إسرائيل خلال عام 2023 ما لا يقل عن 247 فلسطينيًا أكثرهم من المدنيين، بينما قتل الفلسطينيون في عملياتهم الفردية، أو تلك العمليات التي تتبنّاها فصائل المقاومة، نحو 32 إسرائيليًا، ما بين مجنّدين في جيش الاحتلال ومستوطنين. كما أن اتساع رقعة الاستيطان وتهجير الفلسطينيين من قراهم وهدمِ منازلهم والغلو في الاعتقال والتنكيل والأسر، في ظل حكومة عنصرية يقودها عدد من الوزراء اليمينيين المتطرفين، وعلى رأسهم وزير الأمن القومي إيتامار بن غفير، الذي طالب أكثر من مرّة بـ «إبادة الفلسطينيين عن بكرة أبيهم»، ووزير المالية بتسلئيل سموتريش، الذي يدعم الاستيطان بكل قوّة ويضغط على الحكومة

الإسرائيلية للسماح له بالحصول على مزيد من التمويل لبناء عشرات المستوطنات الجديدة على الأراضي الفلسطينية، ساهم في زيادة الاحتقان الفلسطيني؛ فضلًا عن الاقتحام المتكرّر للمسجد الأقصى بمئات المستوطنين المسعورين، مع حماية مشدّدة من الشرطة الإسرائيلية التي تمنع الفلسطينيين من أداء مناسكهم وتعتقلهم وتهينهم بالعشرات. وقد أكّد القائد محمد الضيف كل هذا في المقطع المصوّر الذي كان بمثابة إيذان منه بالانطلاقة الفعلية للعملية التاريخية، حيث قال: إن طوفان الأقصى جاء رداً على «تدنيس الإسرائيليين للمسجد الأقصى»، وذلك بعيد اقتحام مئات المستوطنين، وعلى مدار 3 أيام، تزامنًا مع عيد العرش أو عيد المظلّات اليهودي، للأقصى، بحماية ودعم من الشرطة الإسرائيلية التي أمعنت في منع الفلسطينيين من دخول باحات المسجد للصلاة.

وبالتالي فإن ما قامت به حركة حماس هو فعل طبيعي وحق مشروع لحركة مقاومة ضد الاحتلال. إلّا أن عملية طوفان الأقصى الفدائية تدخل في سياقات أخرى، نظراً إلى موقع حركة حماس كحكومة وسلطة تحكم في قطاع غزة، ويتعامل معها العديد من الدول على هذا الأساس. حتى إسرائيل، ولسنوات، تنسّق معها بطريقة غير مباشرة كسلطة أمر واقع؛ بل إن نتنياهو اعترف أكثر من مرّة بأن وجود حماس في السلطة بالقطاع يخدم مصلحة إستراتيجية لإسرائيل. ولسنوات، اتّبعت الحكومات المختلفة، بقيادته، نهجاً أدّى إلى تقسيم السلطة بين قطاع غزة والضفة الغربية – مما ساهم في تهميش رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس، بينما قام نتنياهو بخطوات عزّزت حركة حماس، وذلك من منطلق الفكرة الرامية إلى منع عباس – أو أي شخص آخر في حكومة السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية – من التقدم نحو إقامة دولة فلسطينية. وهكذا، وفي خضم هذه المحاولات لإضعاف عباس، تمّت ترقية حماس من مجرّد جماعة مسلّحة إلى منظمة أجرت معها إسرائيل مفاوضات غير مباشرة عبر مصر، وسُمح بضخ مبالغ نقدية لها من الخارج. كما تم تضمين "حماس" في المناقشات حول زيادة عدد تصاريح العمل التي تمنحها إسرائيل للعمّال في غزة، مما أدّى إلى تدفّق الأموال إلى غزة، ما يعني توفير الغذاء للعائلات والقدرة على شراء المنتجات الأساسية. وقد قال مسؤولون إسرائيليون إن هذه التصاريح، التي تسمح للعمّال في غزة بالحصول على رواتب أعلى مما كانوا سيحصلون عليه في القطاع، هي أداة قوية للمساعدة في شراء الهدوء. ومع نهاية ولاية حكومة نتنياهو الخامسة في عام 2021، تم إصدار ما يقارب من 2000–3000 تصريح عمل لسكّان غزة. وارتفع هذا العدد إلى 5 آلاف؛ وفي عهد حكومة بينيت–لبيد، ارتفع بشكل حاد إلى 10 آلاف. وبالإضافة إلى ذلك، منذ عام 2014، غضّت الحكومات بقيادة نتنياهو عملياً الطرف عن البالونات الحارقة وإطلاق الصواريخ من غزة. وفي غضون ذلك، سمحت إسرائيل لحقائب تحتوي على ملايين الدولارات من الأموال القطرية بدخول غزة عبر معابرها منذ عام

2018، من أجل الحفاظ على وقف إطلاق النار الهش مع الحركة التي تحكم القطاع. وفي أغلب الأحيان، كانت السياسة الإسرائيلية تقضي بالتعامل مع السلطة الفلسطينية باعتبارها عبئاً، وحماس باعتبارها مكسباً. وعضو الكنيست اليميني المتطرف بتسلئيل سموتريش، وهو الآن وزير المالية في الحكومة المتشددة وزعيم حزب "الصهيونية المتدينة"، قال ذلك بنفسه في عام 2015. ووفقاً لتقارير مختلفة، أثار نتنياهو نقطة مماثلة في اجتماع لحزب الليكود في أوائل عام 2018، عندما نقِل عنه قوله إن الذين يعارضون الدولة الفلسطينية يجب أن يدعموا تحويل الأموال إلى غزة، لأن الحفاظ على الفصل بين السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية وحماس في غزة سيمنعان قيام دولة فلسطينية. وفي حين أن نتنياهو لا يُدلي بمثل هذه التصريحات علناً أو رسمياً، إلاّ أن كلماته تتماشى مع السياسة التي نفّذها. وقد تم تكرار الرسالة نفسها من قِبل المعلّقين اليمينيين، الذين ربما تلقّوا إحاطات حول هذه المسألة، أو تحدّثوا إلى مسؤولين كبار في الليكود وفهموا الرسالة. و"حماس"، المدعومة بهذه السياسة، أصبحت أقوى وأقوى حتى يوم سبت الغفران، مع وقوع "بيرل هاربور" الإسرائيلي، وهو اليوم الأكثر دموية في تاريخ الكيان – عندما عبر مجاهدو المقاومة الحدود، وقتلوا مئات المستوطنين الإسرائيليين وخطفوا عدداً غير معروف منهم، تحت غطاء آلاف الصواريخ التي تم إطلاقها على جميع أنحاء جنوب ووسط الأرض الفلسطينية المحتلة.

3 – سقوط الغطرسة ومحاولة استيعاب الضربة:

جاءت عملية "طوفان الأقصى"، الصاعقة والمدمّرة، كدليل دامغ وواضح على قدرة المقاومة على اجتراح المستحيل رداً على الانتهاكات الإسرائيلية المتواصلة بمحاصرة القطاع، ومصادرة ممتلكات الفلسطينيين بالتهويد والاستيطان الزاحف، وانتهاك حُرمات المسجد الأقصى المبارك، وهجوم المستوطنين الإسرائيليين المتكرّر، مادياً ومعنوياً، على الأفراد الفلسطينيين داخل القدس والضفة والداخل المحتل؛ إضافة إلى أكثر من ستة آلاف أسير يُعانون الأمرّين منذ سنوات طويلة. وخلال الحقبة القريبة الماضية، ظهرت تهديدات وقحة من حكومة نتنياهو باحتلال غزة، وإسقاط حكم حماس فيها، مثل التصريح الذي صدر في مارس/آذار 2023 من وزيرة الاستيطان والمهام الوطنية أوريت ستروك، التي قالت إن المستوطنات التي انسحبت منها تل أبيب في قطاع غزة عام 2005 هي "جزء من أرض إسرائيل، وسيأتي اليوم الذي نعود فيه إليه"، من دون أن تُحرّك أميركا والمجتمع الدولي ساكناً.

لقد حمّل الكاتب الإسرائيلي المعروف، جدعون ليفي، الاحتلال الإسرائيلي مسؤولية الأحداث الأخيرة،

وقال في مقال له في صحيفة "هآرتس"؛ إن وراء كلّ ما حصل: الغطرسة الإسرائيلية؛ مضيفاً: فكّرنا أنه مسموح لنا أن نفعل أي شيء، وأننا لن ندفع ثمناً، ولن نُعاقَب على ذلك أبداً. ومضى ليفي يقول: نواصل دون تشويش. نعتقل، نقتل، نسيء معاملة، نسلب، نحمي مستوطِني المذابح، نزور قبر يوسف، وقبر عثنيئيل، ومذبح يشوع، وكلّها في الأراضي الفلسطينية؛ وبالطبع نزور "جبل الهيكل" (المسجد الأقصى) أكثر من 5000 يهودي في عيد العرش. نُطلق النار على الأبرياء، نقتلع عيونهم ونهشّم الوجوه، نرحّلهم، نصادر أراضيهم وننهبهم، ونخطفهم من أسرّتهم، ونقوم بتطهير عرقي؛ أيضاً نواصل الحصار غير المعقول. وكل شيء سيكون على ما يرام. نبني حاجزاً هائلاً حول القطاع، كلّفت بُنيته تحت الأرض ثلاثة مليارات شيكل، ونكون آمنين. نعتمد على عباقرة وحدة 8200 وعملاء الشاباك الذين يعرفون كل شيء، وسيحذّروننا في الوقت المناسب. ننقل نصف الجيش من غلاف غزة إلى غلاف حوارة؛ فقط لتأمين احتفالات المستوطنين بعيد العرش، وسيكون كل شيء على ما يرام، سواء في حوارة أو إيريز. ثم يتّضح أنه يمكن لجرّافة بدائية وقديمة، اختراق حتى أكثر العوائق تعقيداً والأعلى تكلفة في العالم، بسهولة نسبياً، عندما يكون هناك حافز كبير للقيام بذلك. انظروا، يمكن عبور هذا العائق المتغطرس بالدرّاجات الهوائية والنارية، رغم كل المليارات التي صُرفت عليه، ورغم كل الخبراء المشهورين والمقاولين الذين كسبوا المال الكبير.

ويتابع الكاتب : "اعتقدنا أنه يمكن أن نواصل التحكم الدكتاتوري بغزّة، ونرمي عليها هنا وهناك من فتات المعروفية، المتمثل ببضعة آلاف من تصاريح العمل في إسرائيل – وهذه قطرة في محيط؛ وهي أيضًا مشروطة دائماً بالسلوك السليم–؛ ونقابل ذلك بأن نُبقيها سجناً لهم. نصنع السلام مع المملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة، وتنسى قلوبنا الفلسطينيين، حتى يتم محوهم، كما كان يرغب عدد غير قليل من الإسرائيليين. نواصل احتجاز آلاف الأسرى الفلسطينيين، ومن بينهم أسرى بدون محاكمة، وأغلبهم سجناء سياسيون، ولا نوافق على مناقشة إطلاق سراحهم حتى بعد عقود في السجن. ونقول لهم؛ إنه فقط بالقوة يمكن لأسراهم أن يحصلوا على الحريّة. لقد ظننّا أن نواصل بغطرسة صد أي محاولة للحل السياسي، لمجرّد أنه لا يُناسبنا الانشغال فيه، ومن المؤكد أن كل شيء سيستمر على هذا النحو إلى الأبد. ومرّة أخرى، ثبت أن الأمر ليس كذلك. اخترق عدة مئات من المسلّحين الفلسطينيين السياج وغزوا إسرائيل بطريقة لم يتخيّلها أي إسرائيلي. لقد أثبت بضع مئات من المقاتلين الفلسطينيين، أنه من المستحيل سجن مليوني إنسان إلى الأبد، من دون دفع ثمن باهظ. وكما هدمت الجرّافة الفلسطينية القديمة المدخّنة بالأمس الجدار، وهو الأكثر تطوراً بين كل الجدران والأسوار، إلاّ أنها مزّقت أيضاً عباءة الغطرسة واللامبالاة الإسرائيلية. كما أنها مزّقت فكرة أنه يكفي مهاجمة غزة بين المرّة والأخرى بالطائرات الانتحارية بدون طيّار، وبيع هذه الطائرات لنصف العالم، من

أجل الحفاظ على الأمن". وتابع ليفي: "بالأمس، رأت إسرائيل صوراً لم ترها في حياتها: سيّارات عسكرية فلسطينية تقوم بدوريات في مدنها، وراكبو درّاجات هوائية من غزة يدخلون بوّاباتها. هذه الصور يجب أن تمزّق عباءة الغطرسة. قرّر الفلسطينيون في غزة أنهم على استعداد لدفع أي شيء مقابل الحصول على لمحة من الحريّة. هل هناك رجاء من ذلك؟ لا. هل ستتعلّم إسرائيل الدرس؟ لا. بالأمس، كانوا يتحدّثون بالفعل عن محو أحياء بأكملها في غزة، وعن احتلال قطاع غزة ومعاقبة غزة "كما لم تتم معاقبتها من قبل". لكن إسرائيل تعاقب غزة منذ عام 1948، بدون توقّف للحظة واحدة. 75 عاماً من التنكيل، والأسوأ ينتظرها الآن. إن التهديدات بـ "تسطيح غزة" تُثبت أمراً واحداً فقط: أننا لم نتعلم شيئاً. إن الغطرسة موجودة لتبقى، حتى بعد أن دفعت إسرائيل مرة أخرى ثمناً باهظاً. يتحمّل بنيامين نتنياهو مسؤولية ثقيلة جداً عمّا حدث، وعليه أن يدفع الثمن. لكن الأمر لم يبدأ معه، ولن ينتهي بعد رحيله. وعلينا الآن أن نبكي بمرارة على الضحايا الإسرائيليين؛ ولكن علينا أيضاً أن نبكي على غزة. وغزة، التي معظم سكّانها لاجئون خلقتهم أيدي إسرائيل؛ غزة التي لم تعرف يوماً واحداً من الحريّة".

4 – تغيير معادلات ومكاسب استراتيجية:

جرفت عملية "طوفان الأقصى" المعادلات القائمة في المنطقة، وفرضت انقلاباً لا يزال غير واضح المعالم، سواء في الداخل الفلسطيني أو في واقع إسرائيل ومصيرها، أو في معادلات المنطقة عربياً وإقليمياً، أو حتى في معادلات المنطقة والمجتمع الدولي. ومع هذا "الطوفان"، من المتوقع أن تتدحرج الخرائط الجيوسياسية التي كان قد وضِع بعض أسسها من الهند إلى الصين إلى حيفا. فتداعيات هذا "الطوفان" لن تقتصر على أهمية العملية النوعية التي أذاقت "إسرائيل" مرارة الحرب في عقر دارها، وليس على حدود ما مع دول الطوق، كما جرت العادة. وفي حين يكثر التحليل عن أن هذه الحرب التي لا تزال في أيامها الأولى، سوف ترتّب أثماناً لم تعرفها "إسرائيل" منذ احتلالها فلسطين، يبقى أنها حسمت نقل المرجعية الفلسطينية من "منظمة التحرير" وحركة "فتح" إلى حركة "حماس". ومعروف أن المحور الممانع عمل لتحقيق هذه الغاية منذ فترة، سواء في مناطق الحكم الذاتي، أو في أي مكان يوجد فيه فلسطينيو الشتات. وبرغم كل ما سبق، وبغضّ النظر عن المسارات المستقبلية والمآلات النهائية للمواجهة الحالية، فإنها قد حقّقت للفلسطينيين ومقاومتهم عدة مكاسب تكتيكية واستراتيجية لن تتغير، ولن تؤثّر فيها التفاصيل اللاحقة، وأهمها ما يأتي:

المكسب الأول: يكمن في أن الآثار المادية والمعنوية المترتّبة على الهجوم العبقري المباغت الذي شنّته "حماس" على مستوطنات غلاف غزة، لا تُعد ولا تُحصى. ففي المقام الأوّل، مرّغ هذا الهجوم صورة جيش

العدو الذي كان يوصف بأنه لا يُقهر، واستخباراته وتكنولوجياته، بالوحل؛ وفي المقام الثاني، جرى هزّ ثقة المجتمع الصهيوني نفسه بقياداته، وتفوّقها المعرفي المزعوم، وقوّتها العسكرية والأمنية والاستخبارية. كما وُضع المستوطن المحتل في مواجهة صريحة مع نفسه قبل أي شيء، واضطرّ لأن يطرح على نفسه أسئلة جوهرية تحت النيران: هل تستحق هذه الأرض أن أموت لأجلها؟ هل يمكن العيش في هذا المحيط الغريب من دون تفوّق (عسكري وعِرقي)، في ظل تهديد متصاعد من جانب العرب سمر البشرة؟ لقد جاء العديد من الإجابات من مطار بن غوريون، ومعبر طابا، والمهرولين في تيه الصحراء، والمجنّدين الهاربين، وأولئك الذين يُسحبون إلى خط المواجهة عنوة وسط الصراخ والعويل. وبخصوص هؤلاء، يجب الالتفات إلى مسألة عسكرية مهمّة، إذ إن خوفهم هذا مبرّر، ومبرّر له أن يكون مضاعفاً لأنهم لم يكونوا على معرفة ميدانية بالمنطقة؛ إذ إن غزة استطاعت، في الساعات الأولى من الهجوم، تفتيت القوات العسكرية في محيطها وصولاً إلى تصفية القيادات، الأمر الذي خلق فراغاً ميدانياً واستخبارياً، ما يُعدّ من أسباب تأخُّر الردّ الصهيوني والشلل الميداني لثلاثة أيام متتالية.

المكسب الثاني:

– هو كسر هيبة "دولة" الاحتلال ومؤسساتها العسكرية والأمنية بشكل غير مسبوق، وتثبيت كسر أسطورة الجيش الذي لا يُقهر والجندي المدجّج بالسلاح المتفوّق على الآخرين؛ ذلك أن مباغتة كتائب القسّام وتفوّقها الملحوظ وإنجازاتها الدامغة، ولا سيما العدد الكبير من القتلى والأسرى الإسرائيليين، ومشاهد المواجهات المباشرة بين المقاومين والجنود، قد أنتجت صورة من الصعب ترميمها بالنسبة لـ "دولة" الاحتلال في السنوات القليلة المقبلة. كما أن هذه الصورة المهينة والمذلّة لقوات الاحتلال سيكون لها أثرها الإيجابي الكبير على معنويات كل من المقاومة الفلسطينية وجمهورها من جهة، وجيش الاحتلال وجبهته الداخلية من جهة ثانية، بشكلين متعاكسين بطبيعة الحال؛ فضلاً عن أن كسر صورة "إسرائيل" كقوة عسكرية وأمنية مسيطرة في المنطقة قد يكون له أثره السلبي على مسار تطبيع علاقاتها مع عدد من الدول العربية والإسلامية، خصوصاً إذا ما أقدمت على عمل عسكري في غزة تسبّب بخسائر بشرية كبيرة.

المكسب الثالث:

– هو مكسب للمقاومة ولفلسطين ولعموم الشعوب العربية والإسلامية، وهو أن العرب والمسلمين، إذا ما أرادوا، فهم قادرون على ضرب "إسرائيل" فى عقر دارها لأول مرة منذ معارك النكبة عام 1948؛ ذلك أن استراتيجية "إسرائيل" المقدّسة والدائمة هي أنها تحارب في أرض أعدائها. والمقاومة أثبتت يوم "سبت الطوفان"

أنها قادرة على دخول المستوطنات والثكنات العسكرية بمجاهديها، والسيطرة عليها والتحصّن فيها وقتل وأسر الجنود والمستوطنين معاً. وهذا الانتصار له أثر كبير وعميق على العقل والوجدان الفلسطيني والعربي والإسلامي، لناحية تعزيز الإيمان بالقدرة على هزّ أمن الكيان الغاصب بأضعف الإمكانيات. فمشهد أهالي غزة العابرين مع المقاتلين، وهم يخطفون ويقاومون بلا أسلحة وبأبسط الإمكانيات، يفتح الباب على مصراعيه أمام خيال جيل كامل، لم يرَ وهن العدو بالعيان فقط، بل وتلمّس قدرته الكامنة على إيذائه وتدميره. والأمر الذي بوسعه أن يُفجّر الوضع في وجه الاحتلال، هو تصعيد المواجهة العسكرية في الضفة، ونقلها إلى حالة الغليان، عبر مهاجمة المستوطنات كما حصل في طولكرم، والنقاط والحواجز العسكرية كما حدث في الجلمة، وملاحقة الجنود كما وقع في أبو ديس؛ إذ إن كل نقطة ستستنزف جيش العدو ميدانياً واستخبارياً ونفسياً، وستُضاعف من أثر المقاومة، وستؤدّي بشكل جماعي إلى إنهاك العدو جسدياً وإدراكياً، وصولاً إلى تحطيم إرادته في النهاية. والحال نفسه ينسحب على الأراضي المحتلة عام 1948، ولكن على نحوٍ مضاعف، حيث لكل فعل وزن مختلف يدقّ على الوتر الحسّاس، ويوقظ هواجس المستعمرين وكوابيسهم؛ كما أن له القدرة على إرباك الجبهات المعنية كافة، مع استبعاد أيّ إمكانية لاستخدام سلاح الجو، أو العنف والتوحش المفرطَين. وبالنتيجة، العدو حتى الآن فاقد للسيطرة في مناطق «الغلاف»؛ ولكن ماذا سيحصل إذا سادت الفوضى المناطق المركزية؟ ليس باستطاعة أحد تخيّل المشهد، ولكن الأكيد أن ثمّة حالة ذعر منطلقة من مخاوف تسكن العقل الصهيوني الباطن، من الفوضى، والتي يجدر بفلسطينيي الداخل أن يُذيقوا العدو كل أصنافها.

المكسب الرابع:

– هو الفشل الأمني والاستخباري الخطير وغير المسبوق. فحينما تفشل كل أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية والأمريكية والصديقة في الحصول على معلومة واحدة بنوايا المقاومة، فهذا يعني أن هذه الأجهزة، ومعها المجتمع الإسرائيلي، قد وصلت إلى حالة من الترهّل والانهيار غير المسبوق؛ وهو ما يعني أساساً سقوط خرافة قدرتها الاستعلامية المطلقة. فحينما تفشل في معرفة وتوقّع ما يحدث في مناطق تسيطر عليها أو تحاصرها، كيف لها أن تزعم قدرتها على النجاح خارج أراضيها؟! ويوم سبت الطوفان أصيب الكيان في أعزّ ما يملك، وهو الوهم بأنه قوّة غير قابلة للاختراق، أمنياً ومعلوماتياً واستخباراتياً، في حين أثبتت المقاومة، بسريّتها المطلقة، أن لديها قدرة مذهلة على التخطيط والتمويه والتضليل. وبالتالي فقد خسرت "إسرائيل"، معنوياً ومهنياً، بصورة لا يمكن تخيّلها الآن. فحينما يتم اقتحام مواقع عسكرية بمثل هذه السهولة، واقتياد القادة والجنود والمستوطنين أسرى وهم شبه عراة، وتتم جرجرتهم فى مواكب بشوارع غزة، إنما هو أمرٌ يضرب

معنويات الإسرائيليين فى الصميم. ولا شك بأن هذه المشاهد المذلّة سوف تطاردهم لسنوات طويلة، وربما إلى أن يتم تحرير الأرض الفلسطينية بالكامل.

المكسب الخامس:

– هو الخسارة الكبرى لسمعة السلاح الإسرائيلي الذي يتعامل معه كثيرون في المنطقة وخارجها على أنه الأفضل والأحسن والأكثر تفوّقاً على كل ما عداه، ويتهافت على شرائه العديد من الدول التي تخوض معارك أهلية أو ثنائية. وحينما يعجز هذا السلاح عن التصدي لوسائل عسكرية غاية فى البدائية، فهي إهانة لا تُمحى، وستؤثّر كثيراً على سمعته وعلى الإقبال عليه.

المكسب السادس:

– هو خسارة "إسرائيل" اقتصادياً بصورة لا يمكن تصوّرها أيضاً. فهي أنفقت أكثر من مليار دولار على بناء السلك والجدار العازل مع غزة، لكن تم اقتحامه في دقائق، وكأنه برج من ورق. وخسرت اقتصادياً من جرّاء ضرب بُنيتها التحتية، وخسرت عُملتها وبورصتها كثيراً؛ وسوف تخسر أكثر حينما نطالع الكشف النهائي لنتائج المعركة.

المكسب السابع:

– هو خسارة "إسرائيل" في ثروتها البشرية الأغلى بصورة لم تحدث منذ حرب 1973. فلم يسقط مثل هذا العدد من الخسائر البشرية من قتلى وجرحى منذ 50 عاماً؛ ناهيك عن الأسرى. ومهما كان العدوان الإسرائيلي الآن، أو في المستقبل، متوحّشاً ومدمّراً لغزة وأهلها والمقاومين في الضفة، فإن قدرة العدو على البلطجة ومحاولات تهويد المسجد الأقصى سوف تتقلص إلى حد كبير؛ وربما هو بدأ بالتفكير جدياً في أن يقينه بالقدرة على الاستمرار في احتلال الضفة وحصار غزة بسلاسة قد بدأ يتزعزع بصورة جوهرية. والاستنتاج الأخير ربما يكون أهم نتيجة لطوفان الأقصى على المدى البعيد.

المكسب الثامن:

– يرتبط بمصير مستوطنات غلاف غزة على المدى البعيد؛ ذلك أن ما شهدته هذه المستوطنات من مواجهات، وما خبره المستوطنون، بشكل فردي ومباشر، من ضعف وفشل لأجهزتهم في حمايتهم وتركهم لمصيرهم، سيدفعهم للزهد في العودة إليها، حتى ولو بعد انتهاء معركة الطوفان. ومن النتائج المتوقعة للمعركة، ألّا تعود تلك المستوطنات لحالتها العادية السابقة، وربما وصلت إلى تفكيكها عملياً، حتى وإن لم يحصل ذلك بشكل إعلان رسمي وتنفيذ مباشر من "الدولة"؛ وهو ما يُشبه من زاويةٍ ما تفكيك المستوطنات داخل القطاع بعد الانسحاب منه. أما البديل لذلك، فهو العمل على استبقاء عدد من المستوطنين فيها، مع تخصيص مصادر كبيرة؛ وبالتالي مُرهقة عسكرياً وأمنياً واقتصادياً، لمحاولة طمأنتهم وإبقائهم فيها.

المكسب التاسع:

– يتعلق بملف الأسرى. فقد عرضت المقاومة الفلسطينية مراراً عقد صفقة تبادل أسرى مع الاحتلال عبر وسطاء، بدون أن تجد تجاوباً. والآن، وفي يد المقاومة الفلسطينية عشرات الأسرى، لم يعد ممكناً لأي حكومة إسرائيلية تجنّب عقد الصفقة، وبما يُرضي المقاومة الفلسطينية، وبـ"تنازلات" صعبة على الاحتلال؛ إذ إنه لن يكون بمقدوره تجنّب الضغوطات الداخلية عليه لاسترداد هذا العدد الكبير من الأسرى. ومعروف أن الأزمات تشتد وتتعقد مع تأزّم الأوضاع، إلّا أنها غالباً ما تنتهي إلى تسويات يستفيد منها من يحقّق مكاسب عسكرية. فالواقع الميداني سيفرض تسويته. فأين ستصرف "حماس" انتصارها؟؟ هل ستكتفي باحتكار القرار الفلسطيني وتفرض معادلاتها، مُطلقة رصاصة الرحمة على اتفاق أوسلو؟؟ الأجوبة ستظهر مع ما سوف تؤول إليه المسارات النهائية لحرب "طوفان الأقصى".

المكسب العاشر:

إن محور المقاومة يريد من هذه الحرب إسقاط اتفاقات أبراهام المشبوهة والمجحفة، والتي جعلت "إسرائيل" تعتقد أن التطبيع مع العرب ممكن أن يتم من دون أي ثمن يُذكر. وقد اعتقد مؤيّدو التطبيع أن التفاهم بين العرب و"إسرائيل" سيجعل تل أبيب تستغني عن الاتفاق مع الفلسطينيين؛ واعتقد المطبّعون أن ضم المملكة العربية السعودية إلى صفوفهم سيحصّن اتفاقاتهم ويجعلها قابلة للحياة .

5– إشكالية الهجوم البريّ وتداعياته:

لقد بات واضحاً، بحسب التقييمات والتحليلات العسكرية الإسرائيلية، أن جيش العدو لم يعد منذ فترة من الزمن ذلك الجيش القادر على القتال براً؛ لا بل إن المنظومة العسكرية الإسرائيلية أصبحت أسيرة التفوّق الجوي هجومياً، وما قد توفّره «القبّة الحديدية» من أمان دفاعياً، وذلك على حساب القدرة الهجومية وفعالية القوات البريّة.

وعلى الرغم من أن التحرّك البريّ يحمل في طيّاته خطرين بارزين: يُعرّض الإسرائيليين الأسرى للخطر، ويزيد من احتمالات نشوب حرب متعددة الساحات؛ ومع ذلك، يبدو أنه الاحتمال الأقوى، بزعم أن "حماس" أصبحت تشكّل تهديداً وجودياً على الكيان".

في السياق، أكّد رون بن يشاي، الخبير العسكري لصحيفة "يديعوت أحرونوت"، أنه "في الوقت الذي تتزايد فيه الدعوات لإسقاط حماس في غزة، فإن الأسرى لدى الحركة، والرغبة بمنع التصعيد في الجبهة الشمالية، يزيد الأمر تعقيداً، رغم أنه ليس أمام الاحتلال من خيار سوى إحداث تغيير جذري في الواقع في غزة. ورأى الكاتب أن "الخسائر والأضرار الفظيعة التي تكبّدناها خلال هجوم السبت، سنستمر في تكبّدها في الأيام المقبلة؛ لكن الضرر الاستراتيجي طويل المدى أكثر خطورة. فقد فقدت إسرائيل جزءًا كبيرًا من قوّة ردعها. وإذا لم تستعِد ردعها الاستراتيجي، وأصبحت حماس صاحبة اليد العليا عسكرياً، وفي حرب الوعي، فسيحاول حزب الله والميليشيات في سوريا والعراق من وكلاء إيران، عاجلاً أم آجلاً، تقليد الحركة، أو الانضمام للهجوم". وزعم أنه "من أجل استعادة الردع الإسرائيلي، لا بدّ من إسقاط حكم حماس في غزة، ليتم بشكل حاسم، وبأسرع ما يمكن، حتى لو اضطر الجيش لتغيير قواعد الاشتباك، بحيث تلعب الاعتبارات الإنسانية دوراً أقل أهمية من ذي قبل، وبدون الأخذ في الاعتبار القانون الدولي والشرعية الدولية عندما يعمل لتحقيق أهدافه العسكرية داخل غزة، لأن إضعاف حماس يتطلب تدخلاً برياً بقوات كبيرة، ولفترة طويلة، ربما لأشهر، لا سيما أن الشرعية الدولية لإسقاط حكم الحركة هي حالياً في ذروتها؛ وعلى الجيش الاستفادة من هذه النافذة طالما كانت مفتوحة، من دون التخلّي عن جمع المعلومات الاستخبارية، والتخطيط الدقيق".

وبالتالي تتراوح سيناريوات الهجوم البريّ المرتقب على غزة حالياً بين عدة احتمالات، أوّلها اجتياح المناطق الزراعية والسيطرة على عمق ما بين 400 متر إلى 2 كلم، بهدف إنشاء منطقة عازلة على طول الحدود الفاصلة بين القطاع والأراضي المحتلة، وذلك لإبعاد المقاومة عن «الغلاف»؛ وثانيها تقسيم غزة إلى اربعة معازل أو كانتونات، بما يتيح السيطرة عليها؛ فيما ثالثها، وهو الأصعب، يتمثّل في الاجتياح الكليّ للقطاع، والوصول إلى مناطقه كافة، وهو ما يمثّل الخيار الأكثر تهوّراً وتعقيداً، والأغلى فاتورةً. ومهما يكن ما تفكّر به مؤسسة الاحتلال الأمنية، في حربها «الطويلة»، بحسب ما وصفها وزير الحرب، يوآف غالانت، في مؤتمر

صحافي عقده مع نظيره الأميركي، فإن الخيارات المطروحة أمامها تبدو محدودة، فيما حذّرها رئيس الوزراء الأسبق، إيهود أولمرت، من مغبّة الاجتياح البري، واصفاً ذلك بـ«الكابوس»؛ ونبّهتها مصادر في المقاومة إلى أن هذا الخيار سيكلّفها نصف جيشها. وبينما يحتاج الاجتياح البريّ إلى الدفع بمئات آلاف الجنود (نحو 400 ألف جندي من قوات الاحتياط)، فهو يوفّر مساحات كبيرة للمقاومين للقيام بعمليات إنزال خلف خطوط العدو ومهاجمتها من الخلف من جهة؛ ومن جهة أخرى، هو قد يجعل بقيّة الجبهات أقل قدرة على المواجهة، ولا سيما في حال دخول «حزب الله» في المعركة، والدفع بقوّة «الرضوان» إلى الجليل. وإذا أراد جيش الاحتلال تحقيق «إنجاز»، تشتد حاجته إليه، فسيتوجّب عليه السيطرة على المواقع المركزية، مثل الطرق، وتنفيذ عمليات خاصة لاغتيال القادة العسكريين، ومحاولة إنقاذ الأسرى، وهذا ما يجعل الخسائر المتوقعة في صفوفه أكثر فداحة.

يُضاف إلى ما تَقدّم، أن المقاومة ستواجه الاجتياح بالعديد من الوسائل القتالية، وأولاها الأنفاق الداخلية في ظل تقديرات بوجود مدينة من الأنفاق أسفل قطاع غزة، ستُسهّل على المقاومين تنفيذ عمليات كرٍّ وفر وخوض حرب شوارع ضد جنود العدو، فيما تخدم التضاريس المعقّدة في غزة، والتي تبدو أشبه بمتاهة، المقاومة أيضاً، التي ستستفيد كذلك من ركام الأبنية بتحويله إلى درع بوجه القوة النارية لجيش الاحتلال؛ وصولاً إلى حرب إقليمية واسعة.

كما أن ثمّة تساؤلات حول خطة ما بعد الاجتياح، الذي قد يستمر لشهور بحسب تصريحات مسؤولين إسرائيليين، وخاصة في ظل إقرار مسؤولين أمنيين سابقين بعدم قدرة جيش الاحتلال على إعادة احتلال غزة بكاملها، إذ يحتاج الأمر إلى أعداد كبيرة من الجنود للبقاء فيها. كما أن الاجتياح سيضطر جيش الاحتلال إلى ارتكاب جرائم إبادة، واللجوء إلى استخدام أسلحة محرّمة دولياً أو أسلحة غير تقليدية، فضلاً عن أن مدّته «الطويلة» ستزيد من الضغوط على حلفاء المقاومة، وقد تدفعهم إلى التدخل؛ وأيضاً على الدول العربية وشعوبها، وهو ما قد يخلق واقعاً سياسياً جديداً.

في كل الأحوال، يُنبئ الحشد العسكري الإسرائيلي حول القطاع، والذي يناهز 400 ألف جندي، بأن خيار الاجتياح البريّ انتقل من خانة «الخيارات المؤلمة غير المرجّحة»، إلى الخيار العسكري المحتمل تنفيذه، من دون أن يكون نجاحه مضموناً.

الباحثة الصهيونية، بنينا شوكر، من "معهد القدس للاستراتيجيا والأمن" JISS، نشرت مقالةً لها في صحيفة «إسرائيل اليوم»، بعنوان "في الطريق إلى الحرب البريّة"؛ ناقشت فيها فكرة «اللامناص من الغزو البري»، مُعتبرةً أنه على الرغم من أن الإحجام عن الشروع في غزو غزة براً «ظلّ سمة ثابتة في سياسة استخدام القوّة

التي تنتهجها إسرائيل في العقود الأخيرة»، وأن «الخوف من التمرّغ في مستنقع غزة ظل مبرّراً حتى يوم السبت المنصرم»، فإنه يبدو هذه المرّة أنه «لا مناص من الحرب البريّة؛ حيث ينعكس ذلك في رغبة المستوى السياسي، ومن خلال التجنيد الواسع والمكثّف لقوات الاحتياط، والتقارير التي أفادت بأن رئيس الوزراء، بنيامين نتنياهو، أبلغ الرئيس الأميركي، جو بايدن، بنيّته القيام بذلك». والسبب، وفق ما تقول، هو أن الهجوم القاتل والساحق يوم سبت الغفران، كشف حقيقة مفادها أنه «في الأوقات الصعبة، ينبغي التصرّف بحزم. ووفق الباحثة، ثمّة محرّكات عديدة تدفع في اتّجاه هذا المسار:

أوّلها: المستوى الاستراتيجي، إذ «ثبت، في ضوء التجارب الماضية، أنه ليس في الإمكان تحقيق إنجازات عسكرية كبيرة عبر القصف الجويّ فحسب، وأنه لا بديل من احتلال الأراضي لضبط حركة المرور منها وإليها. وعلى رغم أن إطلاق سراح الأسرى في عملية عسكرية بريّة يبدو، في الوقت الحالي، كسيناريو غير محتمل، إلّا أن السيطرة على الممتلكات والمواقع الأساسية التابعة لحماس، لن يكون ممكناً إلّا في إطار عملية بريّة؛ وهو ما من شأنه أن يمثّل ورقة ضغط في المفاوضات مع الحركة.

ثانياً، وعلى مستوى ما سمّته الكاتبة «الغايات الأخلاقية»، يصبح الغزو البريّ مطلوباً عملياً، ومدفوعاً به، من أجل «إحقاق إنجازات عسكرية كبيرة، لِما في ذلك من تأثيرات حاسمة على استعادة الروح القومية المهشّمة وثقة الجمهور بمؤسسة الجيش».

وبحسب الباحثة، فإنه «لا داعي لاستطلاعات الرأي لقياس المزاج العام في إسرائيل؛ حيث يسود الحزن العميق، والاشمئزاز، والعجز، وأزمة الثقة في الجيش... فالجمهور يُطالب بأن يلمس قوّة وانتعاشة في القدرات القتالية البريّة للجيش من جهة؛ ومن جهة ثانية، يُطالب بسحق حماس حتى النخاع".

أمّا المحرك الثالث للغزو البرّي، فهو «الدوافع الردعية»، إذ إن «أولئك الذين يترقّبون خطوة إسرائيل التالية، مِن مِثل إيران وحزب الله والضفة، سينظرون إلى الغارات الجويّة على أنها ردّ فعل متساهل تجاه أعداء إسرائيل، ما قد يدفعهم إلى الانضمام إلى الحرب» على حدّ تعبيرها. وعلى رغم أن «الكلفة البشرية للعمليات البريّة ستكون باهظة جداً، وبعيداً عن التحدي المتمثل في القتال في واحدة من أكثر المناطق السكنية كثافة في العالم، فانه يمكن الافتراض بأن حماس استعدّت لاحتمال حدوث غزو بري إسرائيلي للقطاع؛ وقد أعدّت بالفعل "حفل استقبال" لائق لقوات الجيش الإسرائيلي من تحت الأرض، ومن فوقها... ويبدو أنه لا مفرّ من الغزو، وخصوصاً أنه في ظل الشرعية الداخلية والخارجية، ثمة فرصة أمام إسرائيل لتحسين وضعها المُزري".

في الاتجاه نفسه، رأى المحلّل العسكري لصحيفة «معاريف»، طال رام – ليف، أن «على هذه الحرب ألّا تنتهي بأقل من إسقاط حكم حماس»، مُشيراً إلى أن الضربات الجويّة التي تشارك فيها حوالي 60 طائرة حربية في كل هجوم، «ما هي إلاّ تمهيد لاجتياح بريّ إنْ تقرَّر تنفيذه»، لافتاً إلى أن «الدمار (وعدد الشهداء) في قطاع غزة سيكون مهولاً»؛ لكن «اختبار الجيش الإسرائيلي سيكون بتحقيق إنجازات عسكرية تؤدّي بالفعل إلى الإضرار بقدرات حماس». أما بالنسبة إلى المستوى السياسي، فإنه يواجه تحدياً لناحية الخطاب الموجّه إلى الحركة، ومفاده أن «الوضع لن يبقى مثلما كان عليه. ولذلك أهميّة عسكرية وسياسية مستقبلاً»، لأنّ «على إسرائيل إنهاء هذه الحرب بشكلٍ تصبح معه حماس غير قادرة على إدارة الحكم أو القدرات العسكرية»، فيما السؤال «مَن سيحكم غزة بعد حماس، لم يَعُد ذا علاقة بالواقع" .

من ناحية أخرى، كتب البروفيسور آشر كوهين، الباحث في العلوم السياسية، والمحاضِر في جامعة «بار إيلان»، «أطروحة» مُغمّسة بالدم، ومُشبعةً بدوافع الانتقام والنزعة العنصرية والفوقية والرغبة في سحق الشعب الفلسطيني، مُعتبراً أن ما حصل يوم السبت «ينبغي أن يُردّ عليه بطريقة تكوي وعي الفلسطينيين، وتجعلهم يختلقون مصطلحاً جديداً لوصف ما سيحلّ بهم. وينبغي أن يكون هذا المصطلح باسم "كارثة 2023" التي ستصطف إلى جانب أخواتها "النكبة" و"النكسة"». لا بل هو لَفت عناية قرّائه إلى أن مصطلح كارثة مشتقٌ من جذر «كارات» العبري، العائد إلى «عقاب توراتي بالبتر ويُنفّذ على 36 خطيئة». وفي مقالته التي نشرها في موقع صحيفة «إسرائيل اليوم»، دعا كوهين، الجيش الإسرائيلي، إلى توجيه ضربة قاضية وساحقة وفظيعة إلى من سمّاهم «حيوانات الغابة» التي «تترقّب بتوتّر شديد ردّ سكّان الفيلاّ»، مُعتبراً أن «إسقاط حكم حماس أصبح هدفاً واضحاً وبديهيّاً لا بدّ من تحقيقه، لكنه لن يكون كافياً؛ إذ يجب التركيز على الطريقة التي سيتم بها ذلك، لأنها الأكثر أهمية في سياق كي الوعي». ويضيف: إنه «ينبغي جعل الكيلومترات المربّعة في غزة مثل خانيونس ورفح... مسطّحة، مع إظهار صور لها قبل وبعد، وأن يُفعّل القصف من دون إنذارات مبكرة؛ حيث سيؤدّي ذلك إلى إنتاج قوافل من عشرات آلاف الأشخاص الهاربين بذعر نحو السياج الحدودي في اتجاه مصر، وذلك بالتوازي مع قطع المياه والكهرباء والوقود والغذاء...». وفي هذا السياق، فإن تداعيات الفظائع التي يدعو إليها «ليست مهمة»، ولكن «المهم هو أن يتذكّر الجميع قصف درسدن»، في إشارة إلى المدينة الألمانية التي قصفتها قوات الحلفاء إبّان الحرب العالمية الثانية، وخلّفت عشرات آلاف القتلى المدنيين الألمان. وختم دعوته بضرورة ارتكاب ما يوازي «مذبحة كيشينيف اليهودية... فلا ينبغي أن يكون لدى الفلسطينيين مصطلح بديل من كارثة 2023»، لوصف ما سيحلّ بهم. وعلى الرغم من حماسة كوهين، النابعة بلا شك من الإذلال الذي تعرّضت له إسرائيل يوم السبت – وكلمة إذلال، بالمناسبة، تنهمر على الشاشات

الإسرائيلية هذه الأيام مثل زخّات المطر–، رأى المحلّل العسكري لصحيفة «هآرتس»، عاموس هرئيل، أن إسرائيل تجد نفسها إزاء «مصيدة»، بعدما «تلقّت ضربة شديدة بالهجوم الواسع والمباغت الذي شنّته حماس»، لافتاً إلى أن الخروج من تأثير ذلك «سيستغرق وقتاً»، فضلاً عن أنه «من دون أدنى شك غيّر إلى الأسوأ، ميزان الردع والاستقرار الإقليمي». ومع إقرار المحلّل بأن الردّ «العسكري الإسرائيلي بديهي، وسيتمثّل في ممارسة قوة غير مسبوقة في بيئة مدنية، فإنه ليس واضحاً ما هي حدود القوّة التي ينبغي أن تستخدمها إسرائيل، أو مدّتها، من أجل الانتصار على حماس وردع حزب الله لفترة طويلة».

وبحسب هرئيل، فإن «إسرائيل لم تُقرّر ما هو الهدف، وما الذي تحاول تحقيقه من هذه الحرب. فهل هو سحق القدرات العسكرية؟ أم إسقاط حكم حماس الذي يستوجب احتلال القطاع؟»، مدّعياً بأن «هذا التوجّه لم يكن وارداً في الخطط العسكرية في الماضي». وفضلاً عن ذلك، «ثمّة خلاف بين قادة أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية حول ما إذا كانت عملية عسكرية شديدة للغاية ضد غزة قد تردع حزب الله عن الانضمام إلى الحرب»، متسائلاً ما إن كان «اجتياح إسرائيلي واسع للقطاع سيحقّق الانتصار، أم سيقود إلى التورّط؟ وفي ضوء ذلك، ما إنْ كان حزب الله سيستغل الانشغال في الجنوب لفتح جبهة أكثر صعوبة في الشمال؟».

في السياق نفسه، يقول أستاذ العلاقات الدولية في جامعة تل أبيب، إيمانويل نافون، إن عملية كبيرة للجيش الإسرائيلي في قطاع غزة أمرٌ لا مفرّ منه في أغلب الاحتمالات، وإن شنّ الجيش الإسرائيلي عملية بريّة في غزة "أمر محتمل جداً "؛ وأضاف: "إنّي لا أرى كيف يمكن لإسرائيل أن تدمّر حماس حقاً دون إجراء عملية بريّة. حتى لو كانت (العملية) لا تغطّي قطاع غزة بأكمله، كما يتعيّن على الجيش الإسرائيلي أن يتأكد من أن هذه المنظمة وجميع قياداتها قد أُبيدت، وأن الهجمات التي لا نهاية لها على السكّان المدنيين الإسرائيليين لن تتكرّر أبداً. لذا، نعم، من المحتمل جداً إجراء عملية بريّة". وشدّد نافون على أن تاريخ إسرائيل انقسم الآن "إلى ما قبل وبعد 7 أكتوبر/تشرين الأول؛ هذه نقطة تحوّل أكثر من حرب يوم الغفران".

وأكّد الخبير في شؤون الشرق الأوسط، ويليام ويكسلر، أن جميع الأوضاع تغيّرت بعد الذي جرى، لافتاً في مقالة بهذا الشأن إلى أن "حماس أثبتت أنها أكثر طموحاً من الناحية العملية وقدرة تكتيكية مما كان متوقّعاً. ومن الناحية النسبية، تمثّل الخسائر التي تكبّدتها إسرائيل ضربة أقوى من تلك التي تعرّضت لها الولايات المتحدة في 11 سبتمبر/أيلول". واعتبر ران أدليست، الكاتب في صحيفة معاريف، أن "نتنياهو غير مؤهّل لإدارة الوضع الحربي، لأن الحقيقة المروعة أن عدّة مئات من مقاتلي حماس نجحوا في عملية محلية لتقويض الشعور بالأمن الوجودي لدى المستوطنين. وطالما أن سلاح الجو هو الذي يقصف، فإنه سيظل مُمسكاً بزمام المبادرة؛ ولكن في اللحظة التي يصدر فيها الأمر بالتحرك براً إلى غزة، فيجب على النظام السياسي أو

الأمني أن يفعل شيئاً جذرياً للتعامل معها، لأنه في هذه اللحظة يستحيل تقدير الكيفية التي سيتم بها الدخول البري إلى غزة". ورأى رون كوفمان، الكاتب في صحيفة معاريف، أن "تمسّك نتنياهو بترؤس حكومة الفشل يؤكّد أنه لا يستعد جيّداً بالفعل لليوم التالي، رغم تهديداته بأن الحرب على غزة من شأنها أن تُحدث تغيرات إقليمية في الجبهتين الجنوبية والشمالية، فضلاً عن حديثه عن تغيير الشرق الأوسط لعقود قادمة، وتهديداته المتكررة لحماس بقوله: "لا تجرّبونا"، أو "ردّنا سيكون غير مسبوق". واستدرك الكاتب يقول:" لكن من الناحية العملية، فإن الزعيم الفلسطيني محمد الضيف استعدّ جيّداً للحرب، وأغرقنا في فوضى سوف تستمر لسنوات، من خلال الاستيلاء على 20 مستوطنة و11 قاعدة عسكرية". وأضاف: "أن "إسرائيل حتى لو قتلت الضيف، ومعه جميع قيادات حماس الموجودة في بلدان أخرى، فلن تُنسي الكارثة التي حدثت في مستوطنات غلاف غزة؛ وبذلك لن نكون مشغولين بحصر عدد السنوات التي مضت على حرب يوم الغفران 1973، لأننا من الآن فصاعداً سوف نحسب الأيام والأسابيع والشهور والسنوات حتى حرب عيد العرش (عيد المظلّات) 2023، بسبب ما مارسته الحكومة الحالية من مظاهر الغطرسة الغبيّة، والعرض المزيّف، والكبرياء المتعجرفة، وخداع الجمهور الذي بات يشكّك في دوافع الحكومة".

ونشرت صحيفة "يديعوت أحرونوت" العبرية مقالاً للمحلّل السياسي الإسرائيلي، شمعون شيفر، أشار خلاله إلى أن الاحتلال لا يملك أوراقاً للضغط على حركة المقاومة "حماس" للمساومة على اتفاق لتبادل الأسرى، موضحاً أن الاستخبارات الإسرائيلية وقعت مجدّداً في "خطيئة الغرور". وقال شيفر إن كل ما يتعيّن على رئيس وزراء الاحتلال الإسرائيلي، بنيامين نتنياهو، فعله لتحرير الأسرى الإسرائيليين، هو الاستجابة فقط لمطالب المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة. وشدّد المقال على أن الثمن الذي سيدفعه الاحتلال سيكون باهظاً جداً، بناءً على تجارب الماضي في عمليات تبادل الأسرى، لا سيما مع وجود أعداد كبيرة من الرهائن في قبضة المقاومة الفلسطينية هذه المرة. ورأى شيفر أن على "دولة" الاحتلال إبلاغ الجانب المصري الذي يُبقي على اتصال غير مباشر بين تل أبيب وحماس، باستعداد الحكومة الإسرائيلية لتحرير جميع السجناء الفلسطينيين الأمنيين المحتجزين لديها مقابل العودة الفورية لكل الأسرى في غزة. وأضاف: "هناك أكثر من 11 ألف فلسطيني محتجزين في السجون هنا، بينهم مئات المحكومين بالمؤبّدات. يحيى السنوار، زعيم حماس والرجل الذي وقف من خلف المفاجأة التي وقعنا فيها، والذي هو نفسه تحرّر في صفقة شاليط، مُلتزم بتحريرهم؛ وهذا هو السبب الذي جعله يأخذ إلى الأسر هذا القدر الكبير من الإسرائيليين". واعتبر شيفر أن الخطيئة الأكبر التي وقعت فيها محافل الاستخبارات الإسرائيلية، هي خطيئة الغرور وخطيئة الاستخفاف بقدرات حماس، مشيراً إلى أن المؤشرات على استعدادات المقاومة لشنّ حرب على الاحتلال كانت علنيّة ولا

تحتاج إلى استخبارات سريّة. وختم مقاله بالقول إن "الثمن الذي سنكون مُطالبين بدفعه في أعقاب هجوم حماس رهيب، لكن لا مفرّ منه".

6 – خاتمة:

تتواصل الاعترافات الإسرائيلية بحجم الهزيمة المدويّة التي لحقت بالاحتلال بسبب هجوم "حماس" في مستوطنات غلاف غزة، وكيف تم الدوس على التفوق العسكري والأمني تحت أحذية مقاتلي "حماس" الذين جابوا شوارع مستوطنات غلاف غزة. ولذلك، فإن الصدمة سترافق الإسرائيليين وخيالهم الجمعي لفترة طويلة، وستكون "عملية الترميم" المادي والمعنوي باهظة الثمن.

لم يكن يوم طوفان الأقصى «يوماً أسود» لإسرائيل وحدها. بل كان كذلك أيضاً بالنسبة إلى المطبّعين العرب الذين شعروا بأن قدراً مماثلاً من الهزيمة والإذلال التي حلّت بإسرائيل، قد أصابهم منها نصيب أيضاً، إلى حد دفع بالكثير من الخبراء في الغرب إلى الاعتقاد بأن تسريع الخطى نحو التطبيع وتصفية القضية الفلسطينية، ولا سيما من جانب السعودية، كان من بين أسباب ما جرى. والنتيجة التي خلص إليها هؤلاء أن التطبيع سوف يجرفه «الطوفان»؛ والتطبيع السعودي الذي تزايد الحديث عنه في الآونة الأخيرة، كان مُقدّراً له أن يهدر الحقوق الفلسطينية ولو بحدّها الأدنى؛ وهو ما دلّ عليه مثلاً إهمال ولي العهد السعودي، محمد بن سلمان، في مقابلته مع قناة «فوكس نيوز»، التي تباهى فيها بالتقدّم الحاصل في المفاوضات مع العدو، من دون أي إشارة إلى الدولة الفلسطينية، بل كان تركيزه منصبّاً على الحصول على معاهدة عسكرية مع الولايات المتحدة تحمي نظامه.

من الناحية التاريخية، سيتم تصنيف ما حصل بأنه كارثة وكي للوعي الصهيوني؛ والأثمان الباهظة التي سيدفعها المستعمرون الإسرائيليون مقابل سوء سلوك أصحاب القرار لا يمكن تصوّرها، ولا تُطاق. فقد فشلت المستويات السياسية والعسكرية والأمنية، في حين كان اهتمام الحكومة الإسرائيلية خلال الأشهر العشرة الأخيرة منصبّاً على إنقاذ نتنياهو من المحاكمة المخزية وعلى تفكيك المجتمع، ومحاولة السيطرة على مراكز السلطة، وتعزيز انقلاب قضائي فاشل أثار الإحباط والغضب بين مختلف شرائح الإسرائيليين.

في هذه المرحلة، من السابق لأوانه استخلاص استنتاجات من ذلك الصباح الصعب على الإسرائيليين؛ لكن من الواضح بالفعل أن الضربة الثقيلة التي وجّهها المقاتلون الأبطال للاحتلال هي نفسية ومعنوية ومادية؛ فقد

انهار الردع الاستعراضي المزعوم؛ والصور المروعة التي تلقّاها الإسرائيليون تغمر شبكات التواصل الاجتماعي، من حيث جثث القتلى والأسرى والمعارك في شوارع المدن والدبّابات والآليات المحترقة. وهذه الصور المذلّة ليست أقل من كارثة على العدو، بعد أن تمكّن الاحتلال على مدى سنوات، من خلق شعور موهوم بالتفوّق العسكري والأمني والأخلاقي.

نعم، لم يُسقط "طوفان الأقصى" حتى الآن بنيامين نتنياهو، ولم يُزل "إسرائيل" من الوجود؛ وقد لا يُسقط اتفاقات التطبيع؛ ولكنه أسقط عملياً السلطة الفلسطينية وكرّس حركة حماس زعيماً أساسياً، وربما ممثّلاً شرعياً وحيداً للفلسطينيين.

في المحصّلة، إن معركة "طوفان الأقصى" قد أظهرت عزماً وتصميماً وتخطيطاً وتنفيذاً من جانب المقاومة الفلسطينية، فاق كل التوقعات والتصورات. وقد تبيّن أن المعركة كانت في حالة إعداد منذ مدة طويلة؛ كما استطاعت المقاومة تحقيق مُنجزات لا يمكن لأي حكومة "إسرائيلية"، حالية أو قادمة، تجنّب التعامل مع تبعاتها. وبغضّ النظر عن مآلات هذه المواجهة وكيف ومتى ستنتهي، وعمّا يمكن أن تسبّبه للمستوى السياسي والعسكري والأمني في كيان الاحتلال من تعقيدات وتداعيات، بما في ذلك احتمالات إسقاط الحكومة وإنهاء المسيرة السياسية لبعض القيادات، وفي مقدّمتهم نتنياهو، فإنها حقّقت مكتسبات كثيرة ذات طابع تكتيكي واستراتيجي، لن يكون من السهل تخطّيها مهما كانت تفاصيل المستقبل.